سورة البينة

سبب تسمية هذه السورة بسورة البينة، ورود هذا اللفظ في مستهلها .

وهو اسم على مسمى، فقد حصلت بها البينة العظيمة .

فمن مقاصد هذه السورة -:

- تحقيق البينة، ورفع الالتباس.

- إثبات الرسالة الخاتمة، وصاحبها ﷺ.

- بيان حقيقة الدين، واستقامته.

- بيان مآلات الناس.

ويلاحظ أن هذه السورة تختلف عن سابقاتها ولاحقاتها، من سور (جزء عم)، بطول الفواصل، فغالب سوره آياتها قصيرة، أما هذه السورة ففي آياتها نوع طول.

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾

(لَمْ) أداة نفي.

(يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا): اسم كان، وأما خبرها: (مُنْفَكِّينَ).

(أَهْلِ الْكِتَابِ) اليهود، والنصارى، لنزول التوراة، والإنجيل فيهم، إلا أنهم حرفوه، وأضاعوه، وأفسدوا دينهم، بما أدخله أحبار السوء، ورهبان الضلالة من الكفر و البدع.

ومن العجب العجاب أن تجد من الناس من ينازع في كفر أهل الكتاب، وقد صرح الله بكفرهم هاهنا، وفي قوله﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[المائدة٧٣]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢]

(الْمُشْرِكِينَ) عبدة الأوثان من جميع الأمم، ومنهم مشركو العرب.

(مُنْفَكِّينَ) منتهين، ومنفصلين عما هم فيه من الكفر والضلال. و(الانفكاك) لفظ يدل على سبق علوق، يعني أنهم عالقون، ساقطون في وضع لا يمكن أن يخرجوا منه، إلا بنفحة علوية، ورسالة سماوية.

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) البينة: الحجة الواضحة، والمراد بها هنا تحديدًا: بعثة محمد ﷺ، فهذه هي البينة التي ترفع كل التباس، وتزيل كل إشكال. ومعنى هذه الآية الاستهلالية: أن الكفار على مختلف أصنافهم؛ من المشركين، عبدة الأوثان، ومن كفرة أهل الكتاب؛ من اليهود والنصارى، ما كان لهم أن ينفكوا، ويزولوا، وينفصلوا عما هم فيه من الضلال، إلا بمجيء البينة، وهي الدليل الواضح، والبرهان الساطع، الذي يكشف كل التباس، ويرفع كل خلاف.

وفي هذه إشارة إلى حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ. فقد كان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فهم ما بين مشرك يعبد صنماً، أو شجرًا، أو حجرًا، أو غير ذلك من أنواع المعبودات، وهم الوثنيون، ومنهم مشركو العرب، الذين بعث فيهم النبي ﷺ، فكانوا يعبدون أنواع الآلهة: اللات، والعزى، ومناة، وهُبَل، وودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق ،ونسرا.

وكان أحدهم إذا نزل منزلاً، بحث عن أربعة أحجار، فجعل ثلاثة منها أثافيَّ لقدره، والرابع إلهًا يعبده!. وإذا نزل أرضًا سهلة ليس فيها حجر، جمع كثيبًا من رمل، ثم حلب عليه ناقته، ثم عبده!. وربما جمع أحدهم التمر، وعبطه، فعبده، فإذا جاع أكله! وكانوا يعبدون الجن، والملائكة، ويعبدون كل شيء. وذكر(الكلبي) في كتاب [الأصنام] أكثر من هذا. هذا من ناحية الاعتقاد.

وكانوا من الناحية الأمنية، والاجتماعية على أسوء حال؛ يقتل بعضهم بعضًا، ويغزو بعضهم بعضًا، فكانوا في حروب وثارات مستمرة. وكانوا يظلمون الضعيف، ويأكلون مال اليتيم، والمرأة، فلا يورثونها، ويغمطونها حقها.

ولم يكن أهل الكتاب، في ذلك الوقت، بخير حال منهم. فأما اليهود، المغضوب عليهم، فإنها أفسدت دين موسى عليه السلام وأخرجته من التوحيد الصرف، إلى أنواع من الشرك، وسوء الأدب مع الله ﷻ والتطاول على جنابه، والنيل من أنبيائه، إضافة إلى أخلاقهم الدنيئة، الوضيعة في التعامل مع الناس؛ من الكبر، والحسد، والسعي في الأرض فساداً، ولهذا عوقبوا بأن شتتهم الله في الأرض، شذر مذر، حتى آل طائفة منهم إلى يثرب – كما كانت تسمى في الجاهلية – يترقبون بعثة النبي الخاتم.

وأما النصارى الضالون، فقد تفرقوا فرقًا كثيرة، وتناحروا فيما بينهم، حتى كانوا يعقدون المجامع، فلا ينفضُّون إلا بين لاعن وملعون! فأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء، وسالت الدماء بسبب ذلك، فكانوا مضطربين في معتقدهم، حتى تسيَّد قول القائلين منهم، بأن الله ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون، وصاروا يحملون الناس على هذا، وجرت حروب عظيمة.

وقد وصف أبو الحسن الندوي – رحمه الله – في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)[1] – حال البشرية قبل بعثة النبي ﷺ، على اختلاف أممها، وكيف كانوا بأمس الحاجة إلى من يستنقذهم من هذا التيه والضلال، الذي تردوا فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[النمل:٧٦]فبعث الله محمدًا ﷺ من العرب، ووصف بالبينة، فقد أنزل الله تعالى كلاما بينًا، واضحًا، لا يستعصي فهمه على الأعرابي البسيط، ولا يستنكف عنه العالم الضليع، بل تخضع له الرقاب، ويقبله كل صاحب فطرة سوية، وكل صاحب عقل سليم، ولا يرون فيه تفاوتًا، ولا تناقضًا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾: (رَسُولٌ) بالرفع، بدل من (الْبَيِّنَةُ) وهذا الرسول هو محمد ﷺ الذي دلت الدلائل المتكاثرة على صدقه. قال الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

[1] وهو من أحسن من كتب في هذا الصدد، وقد ألف قبل نحو خمسين سنة، وهوكتاب نافع ماتع، أوصي بقراءته.

إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران١٦٤]. كانت بعثة محمد ﷺ فتحًا، وفرجًا، ونَفَسًا، من الله، ﷻ، وإلا فإن الناس كانوا على شفير هلكة، وفي الحديث: (إِنَّ اللهَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ؛ عَرَبَهُمْ، وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ، وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ) رواه مسلم[٢].

وكان قد بقي بقية من صالحي أهل الكتاب، في الصوامع، والديارات، باقون على الدين الصحيح، فكانوا أعظم الناس فرحًا ببعثة محمدﷺ. قال تعالى:﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[القصص51-54]، وفي الآية الأخرى﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[المائدة82-83]. فحينما جاء محمدﷺ فرح به أولئك المؤمنون، ورأوا فيه امتدادًا طبيعيًا لرسالة الأنبياء السابقين، وإحياءً لدين الله الحق.

(رَسُولٌ مِنَ اللهَّ) إذا رسالته من عند الله، ليس صاحب نظرية فكرية، أو فلسفية، كلا!، وليس مجرد مصلح اجتماعي ساءه ما رأى من حال الناس، فانتدب للإصلاح الاجتماعي، كلا! هي رسالة ربانية قبل كل شيء. وقد حاول المستشرقون أن يقولوا إنه كان مصلحًا

---

[٢] صحيح مسلم (2865).

اجتماعيًا، أو أنه كان مثقفًا ثقافةً دينية، يريدون أن يزيلوا عنه وصف النبوة - خابوا وخسروا - هو رسول من الله

(يَتْلُو صُحُفًا) أي: يتبع، وهي القرآن العظيم.

(مُطَهَّرَةً)أي: مبرئة من كل شائبة باطل﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

لهذا كانت هذه الرسالة تحمل صفة البينة؛ لأن الرسول من الله، والكتب التي يتلوها، وتورث من بعده مطهرة. وفي هذا إشارة إلى أنه لا يأتيها الباطل، ولا يمكن أن يلحقها تحريف، ولا تغيير، ولا زيادة، ولا نقصان؛ لأن الله - تعالى - تكفل بحفظها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر؟]، فلذلك لم يخرم منه حرف واحد، ولم يقع بين المسلمين خلاف في موضع واحد. دعك من الرافضة! الذين يزعمون أن القرآن ناقص، أو أن القرآن فيه تحريف، حتى ألف أحد خبثائهم- قبحه الله- كتابًا سماه: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)، ويزعمون أن عندهم مصحف فاطمة، ثلاثة أضعاف المصحف الذي بين أيدي المسلمين. هؤلاء زنادقة لا يلتفت إلى كلامهم.

أما كتب من قبلنا فإن الله – تعالى - قد وكل إليهم حفظ كتبهم، فأضاعوها قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] فالله – تعالى - وكَل إلى الأحبار والرهبان حفظ كتبهم، لكنهم أضاعوها.

(فِيهَا كُتُبٌ): كُتُبٌ، جمع كتاب، بمعنى مكتوب، أي آيات مكتوبة.

(قَيِّمَةٌ) أي: مستقيمة، لا اعوجاج فيها، ولا خلل.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: بيان حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: كفر أهل الكتاب.

الفائدة الثالثة: أن الكفر أنواع:

- كفر المشركين: المتمثل بعبادة الأوثان، واتخاذ الأنداد.

- وكفر أهل الكتاب: المتمثل، بكفر اليهود، كقولهم (يد الله مغلولة) وقولهم (إن الله فقير ونحن أغنياء) وقولهم: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وكفر النصارى بقولهم: (إن الله ثالث ثلاثة)،وقولهم: (المسيح ابن الله).

- وكفر المنافقين: المتمثل بإظهارهم الإيمان، وإبطانهم خلافه.

- وكفر إبليس: المتمثل بالإباء، والاستكبار.

- وكفر الغافلين، المتمثل بالتولي، والإعراض.

- وكفر الجاحدين المكذبين، كفرعون .

الفائدة الرابعة أن رسالة النبيﷺ بيِّنة، واضحة، رافعة لكل اشتباه، والتباس، ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾.

الفائدة الخامسة: إثبات رسالة النبي ﷺ من الله.

الفائدة السادسة: إثبات تنزيل القرآن.

الفائدة السابعة: حفظ القرآن من كل تحريف، ونقص.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يقل هنا والمشركون! والسبب، والله أعلم، لكون أهل الكتاب صدروا عن أصلٍ صحيح واحد ثم افترقوا ، بخلاف المشركين. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني في شأن الإيمان بمحمدﷺ ما بين مصدق، ومكذب.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: إلا من بعد أن جاءهم محمدﷺ أو: إلا من بعد ما جاءهم القرآن!

وفي هذا نظر!؛ لأن البينة هنا، ليست هي البينة التي في الآيات الأولى، لأن هذه الآية لبيان سبب تفرق أهل الكتاب عن دين أنبيائهم، كما قالﷻ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة٢١٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران١٩]، وقال:﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى١٣-١٤] وقال:﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧]

فالذي يظهر، كما تدل الآيات السابقات، أن هذه الآية إشارة إلى تفرق سابق، وأن البينة، هي قيام الحجة الرسالية السابقة عليهم؛ لأن هذه السورة سورة مكية، وبعض أهل الكتاب لم تبلغهم بعثة النبي ﷺ ولا دعوته، بعد. ولم يدعُ النبي ﷺ هرقل، والمقوقس، والنجاشي، إلا

بعد أن هاجر إلى المدينة، بعد صلح الحديبية، فلم يقع التفرق في شخصه ﷺ من قبل أهل الكتاب، إلا في العهد المدني.

فهذه الآية إنما تدل على تفرقهم السابق في دينهم، وتكفير بعضهم بعضًا، ولعن بعضهم بعضًا، مع أن الله ﷻ أقام عليهم الحجة الرسالية، لكنهم تنكبوا الطريق، بعد حصول العلم.

وعليه فيكون معنى﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ ﴾ يعني: التي بينها الله لهم سابقا، حتى لا يقول قائل: إن القوم معذورون بتفرقهم، بدعوى تأخر البينة، فرد الله ذلك، وبين أن تفرقهم، كان عن سبق علم، واتباع هوى.

وهذا التوجيه، يزيل الإشكال في عدم قرن المشركين بأهل الكتاب، في هذه الآية، لأنه لا محوج؛ فالمشركون لم يقع تفرق منهم عن أصل رسالة؛ بخلاف أهل الكتاب، فإنهم كانوا يرجعون إلى دين صحيح، فرغبوا عنه.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا ﴾ هذا الاستثناء استثناء مفرغ من أعم الأحوال، مثل قولنا: (لا إله إلا الله)، فهو يدل على كمال الحصر.

﴿ لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾يعني: أن يعبدوا الله.

﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ أي أن أهل الكتاب، وغيرهم، ما أمروا إلا بهذه الخصال العظيمة:

1) عبادة الله وحده، والإخلاص له في ذلك.

2) إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وهذه هي أمهات العقائد، والعبادات،

(مُخْلِصِينَ) حال من: (يعبدوا). فلا تتحقق عبادة الله، ولا تصح، إلا بالإخلاص. فلو أن إنسانا عبد الله، وعبد غيره معه، فإنه لا يكون عابدًا لله. وفي الحديث القدسي قال تعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ »رواه مسلم[٣].

(حُنَفَاءَ) أي: مستقيمين على التوحيد، مائلين عن الشرك؛ لأن الحنف في اللغة، معناه: الميل، ولذلك يلقب من كان في مشيته ميل بالأحنف. فالمراد: الميل عن الشرك إلى الإسلام.

(وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) يعني: يؤدوها على وجه الاستقامة، ولم يقل: ويفعلوا الصلاة، لأن ثَمَّ فرق بين فعل الصلاة، وبين إقامتها؛ فإقام الصلاة: أداؤها على وجه الاستقامة؛ بأركانها، ووجباتها، وسننها، وخشوعها، وشروطها.

(وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) الزكاة في اللغة: الطهرة، والنماء. والمراد بها هنا: زكاة المال.

وكثيرا ما يقرن الله – تعالى – بين هذين الركنين العظيمين:

قال الله تعالى في سورة براءة﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ ﴾ [التوبة:٥]، وقال في الآية الأخرى ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ولأجل هذا قال أبو بكر الصديق ﷺ في حرب المرتدين: (وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ)متفق عليه[٤].

(وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) المشار إليه مجموع هذه الخصال هو: الملة المستقيمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: أعاد ذكر المشركين مع كفرة أهل الكتاب، لأنهم يشتركون في الجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾: الخليقة.

---

[٣] صحيح مسلم (2985).

[٤] صحيح البخاري (1400)، صحيح مسلم (20).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾

هذه مآلات الناس: فإما أن يكون المرء كافرًا، أو مؤمنًا، ليس شيء ثالث؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ ﴾[التغابن:٢]، فهما حالان فقط. وليس هناك منزلة بين منزلتين، كما زعمت المعتزلة. ولكن الإيمان درجات، والكفر دركات، وبينهما حدود فاصلة.

فبين الله تعالى مآل الكافرين؛ من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم في النار المظلمة، التي يحطم بعضها بعضًا، خالدين فيها، خلودًا أبديًا، كما دلت على ذلك ثلاث آيات في كتاب الله. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩ ﴾[النساء:١٦٨ -١٦٩] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ ﴾[الأحزاب:٦٤ – ٦٥] وقال تعالى: ﴿ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ۝٢٣ ﴾[الجن: ٢٣].

وسبب ذلك: أنهم شر الخليقة، فإن من كفر بالله فقد تنكر لفطرته، وإنسانيته، وصار شر الخليقة. وفي المقابل، فالذي آمن بالله، وعمل الصالحات، فقد وافق فطرته، ووفى لربه، وصار خير البرية. ولهذا كافأه الله – ﷻ – بهذا الثواب العظيم، بفضله، ومنه.

(جَنَّاتُ): هي البساتين المستترة بكثرة أشجارها.

(عَدْنٍ) أي: إقامة.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) يعني أنهم في الخلود المطلق، الذي لا ينقطع، عطاء غير مجذوذ، وأجر غير ممنون.

(ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) بيّن سبب استحقاقهم للخلود في الجنان، وأنه خشيتهم لربهم – عز وجل –، لأنها حملتهم على الإيمان، وعمل الصالحات.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: أن تفرق أهل الكتاب عن علم؛ واتباع للهوى.

الفائدة الثانية: بيان أصول الدين: من العقائد، وأمهات العبادات.

الفائدة الثالثة : أن دين الله واحد، وهو الإسلام بالمعنى العام، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. والإسلام بالمعنى الخاص هو ما بعث الله به محمد ﷺ.وإنما تتنوع الشرائع.

وليس لله عدة أديان؛ ليس لله دين اسمه اليهودية، أوالنصرانية. الإسلام هو دين الله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران١٩] فالله تعالى بعث جميع أنبيائه بدين الإسلام، لكن الشرائع متنوعة، كما قال نبينا ﷺ (وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) رواه البخاري[٥] . فدين الأنبياء واحد؛ فموسى عليه السلام لم يبعث باليهودية، وعيسى عليه السلام لم يبعث بالنصرانية. اليهودية: هي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد أن حرفها الأحبار. والنصرانية: هي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد ما حرفها الرهبان. وموسى، وعيسى (عليهما السلام)، وسائر أنبياء الله، دعوا إلى ملة إبراهيم. ولهذا قال الله ﷻ- : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[آل عمران٦٧] وقال منكراً عليهم: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[البقرة؛ ١٤٠]، وقال﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[البقرة: ١٣٠]

قال قتادة – رحمه الله –: (رغب عن ملته اليهود، والنصارى، واتخذوا اليهودية، والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم –يعني الإسلام– حنيفا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا ﷺ بملة إبراهيم)[٦] .

---

[٥] صحيح البخاري (3443).

[٦] تفسير الطبري (89/3).

الفائدة الرابعة: خطأ طريقة بعض الأصوليين في تقسيم الدين إلى أصول وفروع؛ فيجعلون الأصول العقائد فقط، والفروع العبادات، والمعاملات. وهذه السورة تدل على أن من العبادات ما يكون أصلا.

الفائدة الخامسة: أن التوحيد هو أصل دين الله.

الفائدة السادسة: اقتران العمل بالإيمان.

الفائدة السابعة: أن دين الله مستقيم، لا اعوجاج فيه، ولا تفاوت.

الفائدة الثامنة: خلود الكفار في النار.

الفائدة التاسعة: شناعة الكفر، ومنافاته للإنسانية.

الفائدة العاشرة: فضيلة الإيمان، وموافقته للحق، والفطرة.

الفائدة الحادية عشرة: خلود المؤمنين في الجنة.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات صفة الرضا لله ﷻ وأنها من الصفات الفعلية، ووقوع الرضا من الطرفين، ولكل ما يليق به.

الفائدة الثالثة عشرة: فضل الخشية، وأنها أصل التدين، وسبب النعيم.